وإنك لعلى خلق عظيم

سيرة عظيم الأخلاق (٢٨)

غزوتا خيبر ومؤتة، وفتح مكة، وغزوتا حنين وتبوك

ما زلنا عباد الله على الهدى سائرين، ولسيرة نبينا ﷺ دارسين، وللعبر والعظات آخذين. فبين نفحات العطر وومضات الإشراق نستكمل سيرة عظيم الأخلاق محمد ﷺ.

وقد بقي أمام المسلمين فريقان من الخصوم الألداء: أعراب البادية الذين يسيحون في عرض الصحراء كالإبل السائمة، وقلما يلفتهم حديث الإيمان بالله واليوم الأخر، وبقية من يهود الذين ظنوا النبوة حكرًا عليهم.

أولا: غزوة خيبر (آخر محرم سنة ٧ هـ)

فلما فشلت الأحزاب وجنت قريظة عقبى غدرها؛ لم يهدأ يهود خيبر أو يحاولوا إصلاح شؤونهم مع المسلمين، كلا، بل إنهم شرعوا يصلون حبالهم بغطفان والأعراب الضاربين حولهم؛ ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى تكيد من جديد لمحمد ﷺ وصحبه.

ولكنّ المسلمين كانوا أيقاظًا لهذه المؤامرات، فما إن عادوا من الحديبية آخر السنة السادسة حتى توجهوا في المحرم من السنة السابعة إلى خيبر لكسر شوكة اليهود.

وخضعت اليهود، ثم جاءت تعرض على رسول الله ﷺ أن يعاملهم بالنصف في زراعة الأرض، فقبل ولم يجعل ذلك على الأبد مخافة عبثهم، بل قال لهم: **"أَنَّا إِذَا شِئْنَا أَنْ نُخْرِجَكُمْ أَخْرَجْنَاكُمْ"**[1].

ومكث يهود خيبر يزرعون على النصف من نتاجها، ولكنهم خانوا وخدعوا كعادتهم، فأخرجهم عمر رضي الله عنه.

---

[1] تاريخ الطبري رحمه الله (١٥/٣).

ثانيا: مكاتبات النبي ﷺ

وأخذ الرسول ﷺ يبعث السرايا يمنة ويسرة، وسلك مسلكًا آخر في الدعوة ﷺ.

وأخذ ﷺ يبعث مكاتبات إلى الملوك ليدعوهم إلى الإسلام، فبعث إلى قيصر ملك الروم، وكتب إلى كسرى ملك فارس، وبعث إلى المقوقس.

وهكذا عباد الله جاهد رسولنا هذا الجهاد العظيم كل هذه المدة ينشر الإسلام ويربي الصحابة، حتى أصبح في السنة السابعة من الهجرة في ذي القعدة فقام بعمرة القضاء التي اتفق عليها في الحديبية.

ثالثا: غزوة مؤتة (جمادى الآخرة ٨ هـ)

في السنة الثامنة من الهجرة تحديدًا في جمادى الأولى بعث الرسول ﷺ إلى البلقاء بأرض الشام الحارث بن عمير إلى ملك الروم فقتلوه، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ.

فبعث جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمّر عليهم زيد بن حارثة، وقال لهم: **"عَلَيْكُمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَإِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ؛ فجَعْفَرٌ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ، فعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الْأَنْصَارِيُّ"**[1]، فقال لهم المسلمون: **"صَحِبَكُمُ اللَّهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ"**[2]، فلما وصل الجيش إلى أرض الشام بلغهم أن هرقل في باب من أرض البلقاء بمائة ألف من الروم، وجمعوا أيضًا من العرب مائة ألف فصاروا مائتي ألف، فتشاور المسلمون.

وجاهد المسلمون جهادا عظيما، وقتل، زيد، وجعفر، وعبد الله بن رواحة ﷺ، وأبلى المسلمون بلاء حسنا، ورجع خالد بالجيش ليحفظه.

رابعا: فتح مكة (رمضان ٨ هـ)

خالفت قريش العهد مع النبي ﷺ ونقضوا عهد الحديبية، واستشفع أبو سفيان بأبي بكر

---

[1] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (٢٢٥٥١)، وصححه الوادعي رحمه الله في الصحيح المسند (٢٨٩).

[2] أخرجه الطبراني رحمه الله في المعجم الكبير (٢١١٩٥)، وقال الهيثمي رحمه الله في مجمع الزوائد (١٦١/٦): رجاله ثقات إلى عروة.

ﷺ لِيُحَدِّث النبي ﷺ، فرفض فتركه إلى عمر، فقال عمر ﷺ: **"أَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُول اللَّهِ؟! فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ إِلا الذَّرَّ لَجَاهَدْتُكُمْ، ثُمَّ خَرَجَ فَدَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، فقال: ....، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ! قَالَ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، وَاللَّهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى أَمْرٍ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلِّمَهُ فِيهِ"**[1]، ثم نصحه أن يعود، واتجه النبي ﷺ وجيشه لفتح مكة، وكان للمسلمين حرس فعثروا على أبي سفيان ومعه بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، فأخذهم الحرس وعادوا بهم بسرعة إلى رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ مكة منتصرا.

ولحق العباس بعد إسلامه بالأسرى وهو يعلن أنهم بجواره، فلما دخلوا على النبي ﷺ حادثهم فانشرحت صدورهم بالإسلام، ثم سألوه الأمان لقريش، فقال رسول الله ﷺ: **"مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ؛ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ؛ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ؛ فَهُوَ آمِنٌ"**[2].

خامسا: غزوة حنين (شوال ٨ هـ)

وقد فتح الله على رسوله مكة، وفتح العرب جميعًا أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع حتى خيل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فما ينفك عنها.

بيد أن هذا الغلب كله كان له رد فعل معاكس لدى القبائل الكبيرة القريبة من مكة وفي مقدمتها هوازن وثقيف، فاجتمعت هذه القبائل على مالك بن عوف سيد هوازن، وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين قبل أن تتوطد دعائم الفتح وقبل أن يتحركوا لاستئصال ما بقي من معالم الوثنية المدبرة.

وكان مالك بن عوف شجاعًا مقدامًا إلا أنه سقيم الرأي سيء المشورة، فأمر قومه وهم خارجون للغزو أن يأخذوا معهم نساءهم، وأموالهم، وذويهم؛ ليشعر كل رجل وهو

---

[1] تاريخ الطبري رحمه الله (٤٦/٣).

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٨٠).

يقاتل أن ثروته وحرمته وراءه فلا يفر عنها، ونصح في ذلك فأصر على رأيه.

وعلم المسلمون بمخرج أعدائهم فأرسلوا عيونهم يتعرفون عددهم وهيئتهم، فوصل لرسول الله ﷺ أن هوازن جاءت عن بكرة أبيهم بأموالهم وما يملكون واجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: **"تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ"**[1].

وزحف جيش المسلمين في اثني عشر ألف رجلٍ، وأحس جمهور المؤمنين بأن الجاهلية تلفظ أنفاسها الأخيرة، فذهبوا وهم غير مكترثين.

إنهم وهم قلة كانوا يكسبون المعارك الطاحنة، فكيف وهم اليوم يخرجون في عدد لم يجمعوا مثله قبلًا، حتى قيل **"لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ"**[2].

إن منهم من اتكل على القوة والعدد، فلا بد من درس يردهم إلى الحق

وسار الجيش الواثق حتى وصل إلى وادى حنين.

وكان مالك بن عوف ورجاله قد سبقوا إلى احتلال مضايقه، وانبثوا في الشعاب والأجناب المنيعة، ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين، وكان الوادي أجوفًا (متسعًا) منحدرًا ينحط فيه الراكبون كأنهم يسيرون إلى هاوية.

وأقبلت الطلائع المسلمة الغفيرة الواثقة فلم يرعهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المكامن العالية، وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياه في الجو الغائم، فارتاعت المقدمة لهذه المفاجئة في عماية من الليل وعماية من أمرها لا تعرف إلا أن تستدير فتولي الأدبار، وانتشرت موجة الفزع فكسرت الصفوف المرصوصة وبعثرتها.

وأخذ بعض من أسلم من أهل مكة يقول أقوالا تدل على ما في قلبه من بقايا الكفر، فقال أحدهم **"أَلا بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ**، أي أن محمدًا ساحرٌ، فأجابه صفوان بن أمية ولما يزل مشركًا: **اسْكُتْ فَضَّ اللَّهُ فَاكَ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَلِيَنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ**

---

[1] أخرجه أبي داود رحمه الله في سننه (٢٥٠١)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (٢٥٠١).

[2] تفسير الطبري رحمه الله (١٦٥٧٦).

يَلِينِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ"[1].

وانحاز النبي ﷺ ذات اليمين، وقد أغضبه هذا الفرار، فقال: **"أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمَّوا إِلَيَّ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ"**[2]، فلم يرد عليه شيء، وركبت الإبل بعضها فوق بعض وهي مولية بأصحابها.

إن الذي تولى كبر هذه المهزلة هم الطلقاء من أهل مكة ورعاع البدو، ووقف النبي ﷺ ساكن الجأش يدبر الرأي في خطة ينقذ بها سمعة الإسلام ومستقبله.

فأمر النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وكان جهير الصوت أن ينادي: يا معشر الأنصار يا أصحاب البيعة يوم الحديبية، فعلت صيحات العباس ووصلت إلى الآذان، فأخذوا يكافحون ليبلغوا مصدر الصوت فلا يستطيعون من ضغط الفارين، فما يجد الرجل منهم بدًا من أن يقذف درعه من عنقه ويحمل سيفه وترسه ثم يؤم الصوت.

واجتمع حول الرسول مائة وقيل مائتين، وهم يصيحون: لبيك لبيك، فاستقبل النبي ﷺ بهم المشركين وقد ملك زمام الموقف، وأعاد الكرة عليهم، فاجتلد الفريقان اجتلادًا كبيرًا، والنبي ﷺ على بغلته يقول: **"أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ"**[3]، يقول العباس: **"فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ –هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ– قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا"**[4]، و لم يطل الوقت حتى ولوا الأدبار.

---

[1] أخرجه ابن حبان رحمه الله في صحيحه (٤٧٧٤).

[2] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (١٥٠٢٧)، وصححه الألباني رحمه الله في فقه السيرة (٣٨٩).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٣١٥)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٧٦).

[4] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٧٥).

وانهزم المشركون وتركوا أموالهم، وقُتل من قُتل، وأُسر من أُسر، وأنزل الله تعالى قوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[التوبة: ٢٥ – ٢٦][1].

واعتصم بعض المنهزمين بناحية تسمى أوطاس؛ فأرسل إليهم ﷺ جيشًا[2] فهزمهم المسلمون شر هزيمة، واضطر قائدهم مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه أن يفروا، فخلفوا في المعركة أربعة وعشرين ألفًا من الإبل، وأكثر من أربعين ألفًا من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من فضة، هذا إلى جانب ستة آلاف من السبى.

وأخذ الرسول ﷺ يوزع هذه الغنائم على المؤلفة قلوبهم[3]، من رؤساء القبائل ومن الداخلين في الإسلام يريد ﷺ أن يؤلف قلوبهم.

سادسا: غزوة تبوك

ندب الرسول ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب سنة تسعة من الهجرة.

عباد الله، قتال الروم ليس صدامًا مع قبيلة محدودة العدد والعدة، بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات وتملك موارد كثيرة من الرجال والأموال.

على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب

وبلغ المسلمون تبوك فلم يجدوا بها كيدًا أو يواجهوا عدوًا، ولا بد أن الروم آثروا

---

[1] أخرجه عبد الرزاق الصنعاني رحمه الله في مصنفه (٩٧٣٩).

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٤٥٦).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٣٣٠)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٠٦١).

الاختفاء داخل حدودهم عن ملاقاة هذه القوة الفتية، وصالح النبي ﷺ متنصرة العرب فدخل في عهده أيلة، وأذرح، وتيماء، وأيقنت القبائل التي تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، ومكث ﷺ هناك بضعة عشر يومًا يمد بصره وراء الصحراء حيث اختفى الرومان يرقب منهم حركة، فلما رأى القوم قابعين مستكينين قرر أن يقفل عائدًا إلى المدينة موفورًا منصورًا.

يقول كعب بن مالك ﷺ عن أمر المتخلفين عن الغزوة: **"لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ؛ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا؛ حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ؛ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ**

الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي؛ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ؛ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ، فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي؛ أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ؛ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ

بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ؛ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ: يَا كَعْبُ ابْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ

اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا"[1].

فوائد هذه المقطوعة المباركة

١. **التربية التربية:** فعند الفوضى التي حدثت والهزيمة التي أوشكت هدى الله رسوله ﷺ أن يهتف بأصحاب العقائد ورجال الفداء عند الصدام، فهم وحدهم الذين تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب، أما هذا الغثاء من العوام الحارصين على الدنيا السعاة إلى المغانم فما يقوم بهم أمر أو تثبت بهم قدم.

٢. **النصر من عند الله:** ما حدث من هزيمة في أول الأمر، فإن غزوة حنين تعتبر درسًا في العقيدة الإسلامية، وقانون الأسباب والمسببات من نوع ذلك الدرس الذي أوحت به غزوة بدر بل متممًا له.

فإذا كانت وقعة بدر للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئًا في جنب كثرة أعدائهم إذا كانوا صابرين متقين، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضًا لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين متقين، وكما نزلت آيات في تقرير عبرة بدر نزلت في حنين.

فقد كان المسلمون في حنين أكثر عددًا منهم في أي موقعة قبلها، ومع ذلك فلم تنفعهم الكثرة شيئًا؛ بسبب تلك الجماهير التي لم يتمكن الإيمان بعد في نفوسها، ولم يتغلغل معنى الإسلام بعد في أعماق أفئدتها؛ ولذلك أدبروا في متاهات وادي حنين، وحدث الهلع والفوضى.

ولكن ما هو إلا أن سمع الأنصار والمهاجرون صيحات الرسول ﷺ -ولم يكن هؤلاء يزيدون عن المئتين- ولكن بهم عاد النصر بعد أن كانوا اثنى عشر ألفًا فيهم كثير من الأمشاج الذين لم يغنوا عن أنفسهم شيئًا.

٣. **شجاعة الرسول ﷺ:** وما هذه الشجاعة النادرة التي تحلى بها رسول الله ﷺ؟!!

[1] الحديث مختصر، وأصله رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٤١٨)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٦٩).

يبين لنا أن الرجل رجل في السلم وفي الحرب، رجل في المسجد وفي ساحة القتال، فقد كان يقول الصحابة ﷺ عنه كنا إذا حمى الوطيس نتترس به ﷺ، ويقول البراء ﷺ:"**كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ؛ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ**"[1].

صورة نادرة من الشجاعة فقد تفرقت جموع المسلمين في الوادي وقد ولوا الأدبار، ولم يبق إلا رسول الله ﷺ وسط حومة الوغى حيث تحف به كمائن العدو التي فوجئوا بها، فثبت ثباتًا عجيبًا امتد أثره على نفوس أولئك الفارين من أصحابه ﷺ، فعادت إليهم قوة عزيمتهم.

يقول ابن كثير رحمه الله: "**وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّجَاعَةِ التَّامَّةِ، إِنَّهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فِي حَومة الوَغَى، وَقَدِ انْكَشَفَ عَنْهُ جَيْشُهُ، هُوَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى بَغْلَةٍ وَلَيْسَتْ سَرِيعَةَ الْجَرْيِ، وَلَا تَصْلُحُ لكرٍّ وَلَا لفرٍّ وَلَا لِهَرَبٍ، وَهُوَ مَعَ هَذَا أَيْضًا يَرْكُضُهَا إِلَى وُجُوهِهِمْ وينوِّه باسْمِهِ لِيَعْرِفَهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَمَا هَذَا كُلُّهُ إِلَّا ثِقَةً بِاللَّهِ، وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَعِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ**"[2].

٤. توزيع الغنائم:

أولًا: فالرسول ﷺ كره أن يقسم الغنائم يبتغي بذلك رجوع القوم له مسلمين تائبين، فيرجع لهم مالهم، ومكث بضعة عشرة ليلة ولم يجئه أحد، فبين لنا النبي ﷺ وبين للمسلمين أن الحرب حرب عقيدة، لا حرب أموال ومتاع، وإن كانوا بعد ذلك عادوا وأسلموا وأخذوا سبيهم.

ثانيًا: شرع يسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى، فأخذ أبو سفيان مائة من الإبل وأربعين أوقية من فضة، فقال: وابني معاوية؟

---

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٧٦).

[2] تفسير ابن كثير رحمه الله (٤/١٢٨).

فمنح مثلها لابنه معاوية، فقال: وابنى يزيد؟ فمنح مثلها لابنه يزيد[1].

وأقبل رؤساء القبائل يتسابقون ليأخذوا، وشاع في الناس أن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فازدحموا عليه هؤلاء الأعراب الذين حاربوه في أول الأمر ولم يثبتوا في آخره يقولون: اقسم علينا، فقام فيهم ﷺ خطيبًا قائلًا: **"أَيُّهَا النَّاسُ، وَاللهِ مَا لِي مِنْ فَيْئِكُمْ وَلَا هَذِهِ الْوَبَرَةِ إِلَّا الْخُمُسَ ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ"**[2].

الحق أن الرسول ﷺ وسع بحلمه وكرمه مسالك بينة الطيش والجشع في سبيل تأليف هؤلاء الناس، والعجب أن هؤلاء الذين فروا عند الفزع هم الذين كثروا عند الطمع.

وماذا يصنع النبي ﷺ؟! إن في الدنيا أقوامًا كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **"كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"**[3]، ومن هنا قال صفوان بن أمية: **"أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ"**[4].

ثالثا: إن تقسيم هذه الأموال بهذه الطريقة بحيث حرم منها الذين نصروا الرسول ﷺ من أول يوم إن دلت على شيء فإنما تدل على حقارة الدنيا عند الرسول ﷺ.

فتعالوا معي عباد الله مع موقف من أروع المواقف في هذه السيرة العطرة، إن الأنصار هؤلاء الذين نصروا الرسول ﷺ، وآووه، وحموه، وقتلوا في إعلاء كلمة الله، وثبتوا في

---

[1] قال الشيخ الألباني رحمه الله في تخريج كتاب فقه السيرة (٣٩٢): بدون إسناد، وإعطاؤه ﷺ في هذه الغزوة للمؤلفة قلوبهم ومنهم أبو سفيان ثابت في مسلم.

[2] أخرجه البيهقي رحمه الله في سننه (١٢٩٣٣)، وصححه الألباني رحمه الله في فقه السيرة (٣٩٣).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣١٤٩)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٠٥٧).

[4] أخرجه الترمذي رحمه الله في صحيحه (٦٦٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيحالترمذي (٦٦٦).

بدر، وأُحد، والخندق، ومع اليهود، وفي فتح مكة، وفي حنين، هؤلاء لم يقسم لهم رسول الله ﷺ شيئًا، "وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا؟ قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟، قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا؛ لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا

وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا"[1].

إن الخطاب الذي ألقاه عليهم جوابًا على هذه الوساوس ليفيض بمعاني من الرقة، والذوق الرفيع، ومشاعر المحبة الشديدة للأنصار، وهو يفيض في الوقت ذاته بدلائل التألم من أن يتهم من قِبَلِ أحب الناس إليه بنسيانهم والإعراض عنهم.

وقد لامست هذه الرقةُ والخفقاتُ مشاعرَ الأنصار فهزتها هزًا ونفضت منها ما كان قد علق بها من الوساوس والهواجس، فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحًا بنبيهم ﷺ وابتهاجًا بقسمتهم ونصيبهم.

لا ريب أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى، وإن شأن الدنيا أنزل قدرًا من أن يقاس عليه رجل العقيدة.

عباد الله، ازهدوا في الدنيا ولا تتكالبوا عليها، فإن أتت؛ فهذه نعمة الله وفضله، وإن لم تأت؛ فهى أحقر من أن ننافس عليها، ونضحي من أجلها بالآخرة، هي أحقر من أن يقبل أحدنا رشوة من أجلها، أو كذبا أو خداعا من أجلها، هي أحقر من أن يعصي الإنسان ربه من أجلها.

هي أحقر من أن يخفض الإنسان رأسه من أجلها، هي أحقر من أن ينافق الإنسان غيره من أجلها، هي أحقر من أن نقاتل بعضنا بعضًا من أجلها؛ لأنه لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوض؛ ما سقى منها الكافر شربة ماء[2].

٥. **الصدق**: فانظروا عباد الله إلى فضيلة الصدق، فها هو رسول الله ﷺ والمتخلفون عن الغزوة قد صدقوا معه، فانظروا عباد الله وقد ارتفع شأنهم وأنزل الله فيهم قرآنا يتلى، وهذا عباد الله بفضل الصدق، والصدق هو مطابقة الخبر الواقع.

والصدق يكون مع الله، ويكون مع رسول الله ﷺ، ويكون مع الناس

---

[1] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (١١٧٣٠)، وصححه الألباني رحمه الله في فقه السيرة بلفظ قريب (٣٩٥).

[2] أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله في سننه بلفظ مقارب (٢٣٢٠)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٣٢٠).

الصدق مع الله تعالى: بتصديق الغيب والآثار بأوامره والانتهاء عما نهى عنه تعالى، قال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣].

الصدق مع رسوله ﷺ: يقول ﷺ: **"مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"**[1]، وبين النبي ﷺ أنه: **"مَنْ حَدَّثَ عَنِّي حَدِيثًا، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ؛ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ"**[2].

والصدق مع الناس: بمطابقة الخبر الواقع معهم، وعدم غشهم وخداعهم، فعن الحسن ابن علي ﷺ قال: **"حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ"**[3].

فالصدق عبد الله يرفع درجاتك: فعن أبي سعيد ﷺ قال: قال ﷺ: **"مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ؛ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"**[4].

كذلك فإن بالصدق يُبَارَك في مالك: فعن حكيم بن حزام ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: **"الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا؛ بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا؛ مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"**[5]، فلو صدقا فيما يصفان من السلعة من الصفات المرغوبة وبَيَّنَا فيما يصفان من السلعة من الصفات المكروهة؛ بارك الله لهما، وإن كذبا وكتما؛ محقت بركة بيعهما.

وكذلك فإن الصدق يهديك إلى الجنة: فعن عبد الله بن مسعود ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **"إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٢٩١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٣).

[2] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٦٦٢)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٦٦٢).

[3] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٥١٨)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٥١٨).

[4] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٩٠٩).

[5] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢١١٠)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٥٣٢).

الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا"[1].

٦. **تأديب ربك لك فخر**: يقول ابن القيم رحمه الله: **"وَهَكَذَا يَفْعَلُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِعِبَادِهِ فِي عُقُوبَاتِ جَرَائِمِهِمْ، فَيُؤَدِّبُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُحِبُّهُ وَهُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ بِأَدْنَى زَلَّةٍ وَهَفْوَةٍ، فَلَا يَزَالُ مُسْتَيْقِظًا حَذِرًا، وَأَمَّا مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ وَهَانَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ، وَكُلَّمَا أَحْدَثَ ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُ نِعْمَةً"**[2].

فانظروا عباد الله إلى ما فعله الله مع هؤلاء الثلاثة الصادقين العاصين، فهذا أمر فيه الخطورة ما فيه، ويقول الحسن البصري رحمه الله فيما أخرجه ابن أبي حاتم: **"يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! وَاللَّهِ مَا أَكَلُوا مَالا حَرَامًا، وَلا أَصَابُوا دَمًا حَرَامًا، وَلا أَفْسَدُوا فِي الأَرْضِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ أَبْطَئُوا فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ مِنْهُمْ مَا تَسْمَعُونَ"**[3]، فكيف بمن يفعل الفواحش والكبائر؟!

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٠٩٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٦٠٧).

[2] زاد المعاد لابن القيم رحمه الله (٥٠٦/٣).

[3] تفسير ابن أبي حاتم رحمه الله (١٩٠٤/٦).